الفصل الثانى

نشأة المدارس وتطورها

obeikandl.com

obeikandl.com

الأصل اللغوى لاسم المدرسة - مدارس المشرق ودور كل من نظام الملك والزنكيين فى إنشاء المدارس - مدارس صلاح الدين فى مصر والأسباب الدينية والسياسية التى دعته إلى إنشائها - دور القاضى الفاضل فى النهضة التعليمية التى شهدتها مصر - دار الحديث الكاملية - المدرسة الصالحية - النشاط العلمى وهجرة العلماء إلى مصر.

كان لانتشار المذهب الشيعى وسيطرة الفاطميين على كل من مصر والشام - فضلا عن امتداد نفوذهم إلى شبه الجزيرة العربية ووقوع العراق مقر الخلافة العباسية تحت سيطرة بنى بويه الذين يدينون بالمذهب الشيعى - أثره فى نفوس جمهرة المسلمين من أهل السنة. لذلك ما كادت تنحسر موجة المذهب الشيعى عن هذه البلاد نتيجة لضعف الدولة الفاطمية حتى بدأ رد الفعل بالرغبة فى تدعيم المذهب السنى «وتصحيح» عقائد الناس، وكان السبيل السليم لذلك هو إنشاء المدارس لتكون مراكز إشعاع للفقه السنى. وقبل البدء بذكر المدارس ونشأتها يصح أن نعرف أصل هذه الكلمة «مدرسة». فالمدارس فى الأصل هى البيت أو الموضع الذى يدرس فيه القرآن. والمدرس هو الموضع الذى يدرس فيه[1].

ودرس بمعنى فهم وتعلم وحفظ وبمعنى قرأ، فدرست الكتاب أى ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه، ودرست السورة أى حفظتها[2].

ودرست أى تعلمت كقوله عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾[3] وفى الحديث تدارسوا القرآن أى أقرءوه وتعهدوه لئلا تنسوه[4]. أيضا لها معنى الشخص الذى يقوم بالتدريس «والكتاب يدرسه ويدرسه درسا قرأه كأدرسه ودرسه»[5].

ويرى البعض[6] أن كلمة درس بهذه المعانى كلمة دخيلة على اللغة العربية. وربما نقلت إليها من اللغة السريانية أو العبرية حيث إن المدراس فى العبرية هو صاحب دراسة

---

(١) ابن منظور: لسان العرب جـ ٧ مادة درس - الفيروزبادى: القاموس المحيط جـ ٢ مادة درس.

(٢) ابن منظور: لسان العرب جـ ٧ مادة درس - الزبيدى: تاج العروس جـ ٤ مادة درس.

(٣) ابن منظور: لسان العرب جـ ٧ مادة درس.
انظر سورة آل عمران: آية ٧٩ - سورة الأنعام: آية ١٠٥ - سورة الأعراف: آية ١٦٩ - سورة سبأ: آية ٤٤ - سورة القلم: آية ٣٧

(٤) ابن الأثير: النهاية فى غريب الحديث والأثر جـ ٢ مادة درس - ابن منظور: لسان العرب مادة درس جـ٧.

(٥) الفيروزبادى: القاموس المحيط جـ ٢ مادة درس - الزبيدى. تاج العروس جـ ٤ مادة درس.

(٦) انظر: غنيمة: تاريخ الجامعات ص ٦٣، ٦٦.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 part 1 p. 354.

كتب اليهود. والمدارس أيضا بمعنى البيت الذى يدرسون فيه[1]. كما أن لنفس الكلمة عدة معان أخرى منها الاندثار والزوال وغير ذلك وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الكلمة العربية تحمل هذه المعانى لفظا ومعنى واستعمالها بهذا المعنى قديم. أما استعمالها بمعنى القراءة فدخيل.

وقد بدأت فكرة إنشاء المدارس فى المشرق الإسلامى عندما مهد لظهورها بعض المدرسين الذين أقاموا بعض المدارس الخاصة بهم لإملاء الحديث أو لإلقاء محاضرات الفقه. من ذلك ما يقال من أن أبا حاتم محمد بن حبان البستى نسبة إلى بلده بست والمتوفى سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) قد اتخذ من داره مدرسة لأصحابه، وأفرد منها مكانا لسكنى الطلبة الغرباء من أهل الحديث والمتفقهة. وأنشأ بها خزانة للكتب أودع بها ما عنده من الكتب وعين لها خازنا يقوم بإحضار الكتب لمن يريد القراءة أو النسخ، وشرط عليه ألا يخرج منها شيئا خارج المدرسة، كما كان للطلبة الدراسين بها بعض الجرايات الخاصة بنفقتهم[2]. ثم بدأت مع بداية القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الحادى عشر الميلادى) إنشاء بعض المدارس بنيسابور إذ وجدت بها المدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية بناها الأمير نصر بن سبكتكن أخو السلطان محمود الغزنوى لما كان واليا بنيسابور، ومدرسة ثالثة بناها أبو سعيد إسماعيل بن على الاستراباذى، ومدرسة رابعة أيضا بنيسابور بنيت للأستاذ أبى اسحق[3].

وعن مدارس نيسابور أخذ «نظام الملك» هذه الفكرة وطورها وأنشأ مدرسته التى سميت بالنظامية نسبة إليه. ومنذ ذلك الوقت تبلورت فكرة المدرسة كمؤسسة كاملة تشتمل على المكان المعد لإلقاء الدروس، والطلبة المتفرغين للدراسة والرواتب التى تغنيهم عن الاشتغال بطلب الدنيا، وتضمن انقطاعهم لطلب العلم مع توفير المدرسين الأكفاء المتفرغين لتعليم الطلبة. وقد تحمس نظام الملك لمدرسته الجديدة وكان دافعه إلى ذلك محاربة الشيعة بنفس أسلوبهم حيث إنهم اتخذوا التعليم أساسا لنشر تعاليم مذهبهم فاتخذ نظام الملك المدرسة لمقاومة الدعوة الشيعية وتدعيم المذهب السنى.

---

(١) ابن منظور لسان العرب جـ ٧ مادة درس.

(٢) انظر: السمعانى. الأنساب ص ٨١ – الذهبى. تذكرة الحفاظ جـ ٣ ط ١٢ ص ٩٢٠ – ٩٢٣ – ناجى معروف: نشأة المدارس المستقلة ص ٨.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 part 1 p. 353.

(٣) الزركشى: أعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٣٢ ، ٣٣ - المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٦٢ السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٥ – ناجى معروف نشأة المدارس ص ٢٦.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 – part 1 pp. 353 – 354.

وبدأ نظام الملك بعمارة المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٥٧ - ١٠٦٤م) وانتهى من بنائها فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة «من ١٣ سبتمبر إلى ١٢ من أكتوبر» ١٠٦٦م وترجع شهرة هذه المدرسة إلى أنها « أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم»[١].

وعلى ذلك فإن المدرسة باعتبارها مكانا مخصصا للدراسة يضم عددا من الطلبة والمدرسين الذين يتناولون الرواتب المنتظمة سواء كان ذلك من إيراد أو وقف، لم تعرف بهذا المفهوم فى العالم الإسلامى إلا بعد إنشاء المدارس النظامية.

وقد وقعت حادثة طريفة يوم افتتاح المدرسة النظامية ببغداد. إذ جمع نظام الملك الفقهاء والأعيان لحضور الدرس الأول بها والذى عين له الشيخ أبا اسحق الشيرازى فجاء الشيخ ليلقى الدرس « فلقيه صبى فى الطريق فقال يا شيخ: كيف تدرس فى مكان مغصوب؟ فرجع الشيخ واختفى فلما يئسوا من حضوره، ذكر الدرس بها أبو نصر بن الصباغ عشرين يوما. ثم إن نظام الملك احتال على الشيخ أبى اسحق ولم يزل يرفق به حتى درس بها»[٢].

وإذا كان هذا موقف الشيخ الشيرازى وحرصه على ألا يلقى الدرس فى مكان به شبهة ألا يكون قد بنى من مال حلال، فإن موقف العلماء والفقهاء من بناء هذه المدارس التى عينت فيها الأرزاق والأجور للفقهاء كان مزيجا من الأسف والاستنكار. لأن وجهة نظر العلماء أن الإنسان يسعى إلى العلم كغاية فى حد ذاته وليس كوسيلة للكسب والتعيش منه؛ ولذلك رأوا أن من يتخذ من العلم حرفة يتكسب منها يكون قد خرج عن ناموس العلماء وصار شبيها بهم لأنه لا يتحلى بأخلاقهم. «ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد فأقاموا مآتم العلم وقالوا لو كان اشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علما ينتفع بهم وبعلمهم وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون سببا لارتفاعه»[٣].

ورغم أن الوزير نظام الملك لم يكن أول من ابتدع المدرسة إلا أنه أول من أسسها بمعناها المفهوم فى العالم الإسلامى بعد ذلك، إذ أصبح مثالا يقتدى به الأمراء والسلاطين وعملوا على تقليده فى تبنى حركة إنشاء المدارس.

---

(١) الزركشى: إعلام الساجد ص ٣٣ – المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٢. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٥ – الشيال أعلام الإسكندرية ص ١١٠.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 - part 1 p. 354.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٩ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٤ ، ١٨٥.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 - part 1 p. 354.

(٣) ابن الأكفانى: إرشاد القاصد: ورقة ٣ ، ٤.

وبالإضافة إلى ما كان وراء هذه الحركة من دوافع دينية وسياسية فيجب ألا نغفل العامل الشخصى وهو أن نظام الملك كان مغرما بمجالسة الفقهاء والعلماء ويقضى معهم معظم أوقاته «فقيل له: هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة»[1] وكان يقول: إن العلماء يبينون له عيوبه وظلمه فيرجع عن كثير مما عزم عليه. وكان يوصى أولاده أن يسيروا سيرته فى معاملته للعلماء وتفقد أحوالهم فمن رسالة إلى ولده فخر الملك يوصيه بالعلماء «... وينظر إلى الشيوخ والموالى والأئمة بعين الحرمه أيضا وأن يتفقدهم جميعا ويسأل عن سبب غيبتهم»[2] ومن كتاب آخر أرسله إلى ابن جهير وزير الخليفة المقتدى بأمر الله العباسى الذى تولى الخلافة من سنة ٤٦٧ إلى ٤٨٧ هـ (١٠٧٤ - ١٠٩٤م) يتضح منه أن من الأسباب التى دعته لبناء المدارس أن تكون مقرا للعلماء ومكانا لتكريمهم حيث يقول فى رسالته: «وقد بنينا لهم مدرسة تصير مأواهم ويتخذونها فى السراء والضراء مثواهم»[3]. ولم يكن نظام الملك متعصبا لمذهب من مذاهب السنة دون آخر. حقيقة إنه أنشأ مدارسه لتدريس المذهب الشافعى الذى يدين به ولكنه فى نفس الوقت كان يظهر تسامحه مع أصحاب المذاهب السنية الأخرى، فقد حدث أن قامت فتنة بمدينة بغداد سنة ٤٧٥ هـ - ١٠٨٢م بين الشافعية والحنابلة بسبب أن أحد علماء الأشاعرة وعظ بالمدرسة النظامية «وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم»[4] فلم يتحيز نظام الملك لأى من الفريقين ولكنه عمل على فض هذا الخلاف، وكتب للإمام الشيرازى شيخ المدرسة النظامية يحثه على إنهاء هذه الفتنة وهذه الرسالة خير شاهد على موقفه من المذاهب السنية المختلفة حيث يقول: «.. إن واجب السياسة يقتضى عدم التحيز إلى طائفة دون أخرى وأنه الأولى به إذاعة السنن لا إشاعة الفتن. وأنه لم يؤسس النظامية إلا تكريما للعلم واحتفاء بأهله وليس لتفريق واختلاف الأمة»[5] وفى نهاية رسالته يهدد نظام الملك بإغلاق المدرسة إذا لم تجر الأمور وفق ما أورده وأوصى به.

ومن العراق انتقل نظام المدرسة إلى الشام فى عهد الزنكيين الذين نشئوا فى ظل السلطنة السلجوقية، ذلك أن نور الدين محمود كان مثل نظام الملك شديد الحماسة لمذهب أهل السنة، فرأى فى قيام هذه المدارس مؤسسات تقوم بنشر عقائد السنة تطبيقا للدين الإسلامى السليم، فأنفق الكثير فى سبيل إنشاء المساجد والمدارس، وكان يرى فى ذلك تقربا إلى الله تعالى. ويذكر أن نور الدين كان قد أمر بإنشاء جامع بالموصل، فلما انتهى البناء أتوا إليه بأوراق الحساب

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ ١١ سنة ٤٨٥ هـ - ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٤٠.

(٢) عبد الهادى رضا محبوبه: من رسائل نظام الملك. مجلة معهد المخطوطات العربية. م ٧ جـ ٢ ص ٣٣.

(٣) عبد الهادى رضا محبوبه: من رسائل نظام الملك مجلة معهد المخطوطات العربية م ٧ جـ ٢ ص ٣٩.

(٤) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ٤٣.

(٥) عبد الهادى رضا محبوبه - من رسائل نظام الملك مجلة معهد المخطوطات العربية م ٧ جـ ٢ ص ٢٤.

فقال نور الدين: «يا شيخ نحن عملنا هذا لله ودع الحساب إلى يوم الحساب ثم رمى بالأوراق في الدجلة»[1] ويتضح من ذلك أن النزعة الدينية والعمل على مرضاة الله كان الدافع الأساسى وراء بناء المساجد والمدارس.

فإذا رجعنا إلى العامل الشخصى أو العامل الثقافى لنور الدين نجد أنه «كان عارفا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر»[2] وقد بنى نور الدين الكثير من المدارس للحنفية والشافعية في معظم البلاد الشامية في دمشق وحماه وحلب وحمص وبعلبك وغيرها.

وإذا كان نظام الملك يعد المؤسس الحقيقى للمدرسة بنظامها المعروف فإن نور الدين قد اقترن اسمه كذلك بإنشاء دور الحديث بكل من دمشق وحلب. فكان أول من أنشأ دارا للحديث بالعالم الإسلامى[3]. وكان لأهل العلم منزلتهم العالية عند نور الدين فكان «يكرم العلماء ويُعظّمهم ويقوم إليهم ويُجْلِسُهم معه وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده»[4].

ويتضح من ذلك أن كلا من نظام الملك ونور الدين قد استغل المدرسة بنظامها الجديد لخدمة أغراض مذهبية وسياسية في آن واحد. إذ استخدم كلاهما المدرسة لنشر تعاليم المذهب السنى الذى تحمسا له. كما اتخذا منها أساسا لتوطيد سلطانهما في البلاد التى حكماها وتجميع قلوب العامة حولهما. وهكذا حتى غدت المدرسة بشكلها الذى أسسه نظام الملك نموذجا يحتذى للمدارس التى عرفها العالم الإسلامى ولاسيما في مصر مع إدخال بعض التعديلات التى سنتناولها بالبحث بعد ذلك.

صلاح الدين والنشاط المدرسى:

قامت المدارس أساسا لمحاربة المذهب الشيعى في كل من العراق والشام. أما مصر فقد ظهرت فيها نواة المدارس وخصوصا بالإسكندرية وهى مازالت مركزا للدعوة الشيعية. ولكن لم يكن الغرض من قيام هذه المدارس محاربة المذهب الشيعى بقدر ما كانت مظهرا من تسامح

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ ١٢ سنة ٥٦٩ هـ

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ١٥١ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩ – ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ٥٦.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٤ – زيان: حلب فى عصر الزنكيين ص ٢٠٨، ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ٣٧، ص ٣٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ١٥٢ – انظر. ابن الجوزى المنتظم جـ ١٠ ص ٢٤٩ – ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ٣٩.

بعض الخلفاء الفاطميين بعد أن ضعفت دولتهم، وأصبحت السلطة الفعلية فى أيدى الوزراء الذين دان بعضهم بمذهب السنة أو على الأقل أظهر تسامحه معهم بقصد التقرب إلى المصريين الذين كانت عواطف معظمهم سنية.

واستمر الوضع قائما بمصر على هذا النحو إلى أن بدأت الحياة السياسية تتغير بظهور صلاح الدين على مسرح الأحداث فى عهد الخليفة العاضد. ذلك أن صلاح الدين ما كاد يلى منصب الوزارة فى مصر عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه فى الثانى عشر من جماد الآخرة سنة ٥٦٤هـ[١] (١٣ مارس ١١٦٨م) حتى سيطر على أمور الدولة وأخذ يعمل شيئا فشيئا للقضاء على الدولة الفاطمية ممهدا لذلك بالقضاء على بعض المظاهر الشيعية توطئة للتغيير الذى عزم عليه. ثم خطا صلاح الدين خطوة أكثر أهمية فى التمهيد للقضاء على الفكر الفاطمى. فبدأ بإنشاء المدارس بمصر. حقيقة إن كلا من نظام الملك ونور الدين اتخذ المدرسة مركزا لمحاربة مذهب الشيعة والدعوة للمذهب السنى إلا أن صلاح الدين وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة. فالفاطميون متمكنون فى مصر منذ أكثر من قرنين من الزمان ولهم دعوتهم وفكرهم وحياتهم الثقافية[٢] فكان لابد عليه أن يقابل هذا التراث بنفس سلاحه وهو سلاح العلم. وتتمثل خطورة تلك الخطوة التى أقدم عليها صلاح الدين فى أنه شرع فى إنشاء المدارس السنية لمناهضة المذهب الشيعى فى نفس الوقت الذى لا تزال فيه الخلافة الفاطمية قائمة ولا يزال المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى للدولة مع احتمال ما قد يتعرض له من مناهضة المتعصبين والمتعاطفين مع الفاطميين سواء كانوا من الشيعة أم السنيين.

وقد بدأ صلاح الدين فى إنشاء مدارسه بمصر فى شهر المحرم سنة ست وستين وخمسمائة[٣] (١٤ سبتمبر إلى ١٣ أكتوبر ١١٧٠م) فبنى مدرستين إحداهما للشافعية هى المدرسة الناصرية والأخرى للمالكية وهى المدرسة القمحية.

---

(١) المقريزى السلوك جـ ١ ق ١ ص ٤٣ – ابن دقماق الجوهر الثمين ص ٨٧. ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ١٧٩.

(٢) Lane Poole. The story of Cairo p. 183.

انظر الترجمة العربية ص ١٦٢. أحمد شلبى: تاريخ التربية فى الإسلام ٣١٧.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٢.

أما المدرسة الناصرية[1] فكانت أولى مدارس صلاح الدين، بناها بجوار الجامع العتيق وبدأ فى إنشائها فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة (١٤ سبتمبر ١١٧٠م) وهو لايزال وزيرا للعاضد الفاطمى، وخصص الدراسة فيها لتدريس فقه المذهب الشافعى. وأول من تولى التدريس فيها أبو العباس أحمد بن المظفر المعروف بابن زين التجار فعرفت المدرسة باسمه.

ورتب صلاح الدين بعض الأراضى والعقارات للصرف من ريعها على مصاريف المدرسة ودفع رواتب المدرسين والطلبة فأوقف عليها الصاغة وكانت بجوار المدرسة، كما أوقف عليها أيضا إحدى القرى.

وأما المدرسة القمحية فتقع أيضا بجوار جامع عمرو أى بالقرب من المدرسة الناصرية. وكان الشروع فى بنائها فى النصف من محرم سنة ست وستين وخمسمائة (أول أكتوبر ١١٧٠م) وخصصها صلاح الدين لتدريس المذهب المالكى«ووقف عليها قيسارية الوراقين وعلوها بمصر وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة»[2].

أما عن سبب تسمية هذه المدرسة بالقمحية فذلك لأن معلوم المدرسين والطلبة كان يفرق عليهم قمحا[3] من القمح المتحصل من ضيعة الحنبوشية التى بالفيوم. ويذكر ابن دقماق أن هذه المدرسة قسمت إلى أربع زوايا[4]، أى أن كل مدرس اختص هو وطلبته بزاوية منها، وربما يكون هذا هو بداية التطور الذى شهدته المدارس فى مصر وأدى إلى ظهور المدارس ذات الأواوين الأربعة والتى خصص بعضها لتدريس الفقه على المذاهب السنية الأربعة. على أية حال فقد قام صلاح الدين بكل هذه الأعمال وهو ما يزال وزيرا للعاضد ولكنه كما يقول ابن شداد «مقو لمذهب السنة غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين»[5].

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ١٤٨ ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٨٣. أبو شامه: الروضتين جـ١ ص ١٩١ – سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ٢٨٣. أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ٥٠ - المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٢ - ٣٦٣. القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٦ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٥ حسنين ربيع: النظم المالية ص ٧٥، ٧٦.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 - part 1. pp. 355-356.

(٢) انظر: المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٣٦٣ – ابن دقماق الانتصار جـ ٤ ص ٩٥. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٥ - أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ١٩١. حسنين ربيع النظم المالية ص ٧٦.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٦ – انظر النابلسى: تاريخ الفيوم ص ٥٩.

(٤) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٥.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤١.

ثم كان استبداد صلاح الدين بالأمور وأصبح الخليفة العاضد الفاطمى معه مجرد رمز فقط لسيطرة الفاطميين على البلاد. أما السلطة الفعلية فكانت بيد صلاح الدين الذى عزل قضاة الشيعة فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٦هـ «٢٨ فبراير ١١٧٠م» وولى صدر الدين بن درباس قاضيا للقضاة[١]. ولم يستنب ابن درباس فى القضاء عنه أحدا من الشيعة واتخذ كل نوابه من السنيين. ولما علم نور الدين ما صار إليه الوضع فى مصر كتب إلى صلاح الدين بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء العباسى «فاعتذر عن ذلك بميل أهل مصر للعلويين»[٢] ولكن الحقيقة أن الحياة كانت قد تغيرت بمصر منذ قدوم صلاح الدين إليها واختفت معظم شعائر المذهب الشيعى، كما أن الشيعة من المصريين لم يكونوا متحمسين لهذا المذهب الذى فُرِض عليهم علاوة على الأعداد الكبيرة التى كانت لا تزال على سنيتها، ومع ذلك تردد صلاح الدين، وربما كان هذا التردد البادى منه يخفى وراءه مقاصده السياسية وتخوفه من سيطرة نور الدين محمود، ورغبة صلاح الدين فى الاستقلال بمصر التى رأى أن يتخذها قاعدة للمذهب السنى من ناحية وقاعدة للنضال المقبل ضد القوى الصليبية من ناحية أخرى. على أية حال لم يطل تردد صلاح الدين واستغل فرصة مرض العاضد وعزم على قطع خطبته، فجمع العلماء والفقهاء واستفتاهم فى ذلك فأفتوه بجواز قطعها. وكان أكثر المجتمعين مبالغة فى الفتيا الشيخ نجم الدين الخبوشانى، ومع ذلك ظهر التردد على صلاح الدين، فما كان من الخبوشانى إلا أن صعد المنبر بجامع مصر قبل الخطيب فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ «١٠ سبتمبر ١١٧١م» ودعا للمستضىء بأمر الله العباسى فلم ينكر أحد ذلك. فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله العباسى[٣] وتبع ذلك استيلاء صلاح الدين على القصور وأملاك الفاطميين لأنه كان قد استولى على السلطة بالفعل منذ توليه الوزارة.

ولما كان الجامع الأزهر يمثل مركز الدعوة الشيعية وكان صلاح الدين قد قضى على معظم مظاهر هذه الدعوة فلم يكن أمامه سوى هذا الجامع الذى يذكر المصريين بدولة الفاطميين

---

(١) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ٢٨٣ – المقريزى: الخطط جـ٢ ص٢٣٢. ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٣ ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ١٩٤.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٤ – ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٧٩. ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ١٩٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ١٤٨ – ابن الجوزى: المنتظم جـ ١٠ ص ٢٣٧.

أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ١٩٣ – ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٢٨٤، ٢٨٥ – العينى: عقد الجمان جـ ١٢ سنة ٥٦٧ – ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ - ابن أسعد: مرآة الجنان جـ ٣ ص ٤٤٥ – ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٥ ص ١٠٠ – ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٣٧٣ – ٣٧٤.

على بيومى: قيام الدولة الأيوبية ص ١٧٦.

السابقة وما ارتبط به من طقوس الاحتفالات فى الأعياد والمناسبات الدينية فكانت فتوى القاضى ابن درباس وفقا لرأى الشافعى بأنه لا يجوز إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد[1]. فأبطل إقامة صلاة الجمعة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى.

وهكذا عادت مصر مرة أخرى إلى المذهب السنى. وكان اختيار صلاح الدين للمذهب الشافعى ليكون المذهب الأول بمصر ما يدل على ذكائه وفطنته، إذ كان يغلب على المصريين اعتناق مذهبى مالك والشافعى قبل دولة الفاطميين، وكان للإمام الشافعى منزلة خاصة فى نفوس المصريين لإقامته فترة من الوقت بمصر واشتغاله بالتدريس فى جامع عمرو، بالإضافة إلى وجود قبره ببلدهم، هذا بالإضافة إلى اعتناق صلاح الدين نفسه للمذهب الشافعى.

لذلك نجد أن المصريين استجابوا سريعا لدعوة صلاح الدين أو على الأقل تظاهروا «بمذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها»[2].

وبذلك انتقلت مصر من حكم الفاطميين إلى حكم الأيوبيين. وبدأت بذلك عهدا جديدا يختلف فى نظمه وسياسته عن العهد الذى سبقه، ومن شأن هذا التغيير «أن يطبع العصر بطابع جديد ويوجه الحياة العامة والخاصة للأفراد والجماعات وجهة ملائمة لطبيعة العهد الجديد»[3] الذى تميز بسياسة دينية سنية وأدت هذه السياسة دون شك إلى قيام الكثير من المؤسسات التعليمية التى أخذت فى التطور والنمو طوال العصر الأيوبى. وجاء العصر المملوكى ليجد نظاما مكتمل النضج للمدرسة خلفه له عصر الأيوبيين. وثمة حقيقة هامة هى أن المصادر الباقية من العصر الأيوبى لا تحدثنا بدرجة كافية عن المدارس والنظم التعليمية، ربما لانشغال مؤرخى تلك الفترة بالنواحى السياسية والحربية التى غلبت على معظم فترات الحكم الأيوبى. ومن ثم فإن الصورة الكاملة لمدارس العصر الأيوبى لا يمكن الوصول إليها إلا إذا اعتبرنا أن الشكل الذى عرفته مدارس العصر المملوكى ما هو إلا امتداد لنظام المدارس فى العصر الأيوبى الذى أورثه إياه.

أما عن سياسة صلاح الدين التعليمية فبالرغم من خضوعها وتوجيهها لأهداف سياسية واستغلالها لتقوية نفوذه الداخلى بمصر التى اتخذ منها قاعدة أساسية لتحقيق مطامعه

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٦. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٥ – محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ١١٢.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٢ – انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٤ حاشية رقم ٤. الإمامية هم القائلون بإمامة على بن أبى طالب بعد النبى صلى الله عليه وسلم.

(٣) محمد مصطفى: ابن الفارض ص ٣٨.

للاستقلال بها أولا بعيدا عن سيطرة نور الدين ثم لتحقيق أحلامه للاستيلاء على الشام فيما بعد ليتمكن من محاربة الصليبيين وطردهم من الأراضى المقدسة وظهوره بصورة سلطان الإسلام القوى المجاهد الذى تمكن من القضاء على الدولة الشيعية بمصر وتحرير الكثير من الأراضى المقدسة.

إلا أننا نجد أيضا سببا ذاتيا نابعا من شخصية صلاح الدين يحكم تدينه وثقافته الواسعة فقد كان «حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا وإن لم يكن بعبارة الفقهاء»[1] كما كان كثير السماع للقرآن الكريم وتلاوته شديد الرغبة فى سماع الحديث الشريف، وإذا سمع عن شيخ له سند ورواية عالية سأل عنه فإن كان الشيخ يريد الحضور عنده أحضره وسمع عليه هو ومن يحضر من أولاده وحاشيته أما إذا كان الشيخ «ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه وسمع عليه»[2] احتراما للعلماء وإجلالا لهم مع إكرامهم وتوفير سبل العيش لهم. يقول ابن شداد «وكان يوصينا بألاّ نغفل عمن يجتاز بالمخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده وينالهم من إحسانه»[3] وبلغ من اهتمامه بتعليم الأطفال القرآن الكريم وتشجيعهم على ذلك أنه مر يوما على صبى صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن «فأستحسن قراءته فقربه وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة»[4].

أما عن تأسيسه للمدارس فقد سبق أن أشرنا إلى أنه بنى مدرستين إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية أثناء وزارته للعاضد فى أوائل سنة ٥٦٦هـ «١١٧٠م» وكان الهدف من بنائهما أن يهيئ الأذهان لقبول العودة إلى المذهب السنى خاصة وأن معظم سكان مصر كانوا من المالكيين والشافعيين، أما فيما يتعلق بالمذهب الحنفى فيبدو أنه لم يكن منتشرا فى مصر قبل ذلك. إلا أن عدد الحنفية ازداد كثيرا مع دخول جيوش نور الدين إلى مصر صحبة أسد الدين شيركوه فقد كان نور الدين حنفيا متحمسا «فنشر مذهب أبى حنيفة رحمه الله ببلاد الشام ومنه كثرت الحنفية بمصر وقدم إليها أيضا عدة من بلاد الشرق»[5] فبنى لهم صلاح الدين المدرسة

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧ – انظر: ابن سعيد «المغرب» حلى حضرة القاهرة ص ١١٢. ابن دقماق: الجوهر الثمين ص٨٨–وهذه العبارة وردت فى تراجم كثير من السلاطين والأمراء وربما يشوبها بعض لشك.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩ – المقريزى: السلوك جـ ١ ق ١ ص ١١٣. ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ٨٨ – أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٦.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣١ – ابن أيبك: كنز الدرر جـ ٧ ص ١١٧.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٢.

السيوفية لتكون أول مدرسة لتدريس المذهب الحنفي في مصر وذلك في التاسع والعشرين من شعبان سنة ٥٧٢هـ أول مارس١١٧٦م «وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارا وباقي ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبته المقررين عنده على قدر طبقاتهم. وكانت هذه الأموال تأتيهم من ريع اثنين وثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان وقفها صلاح الدين للصرف منها على مصالح هذه المدرسة. ثم عرفت المدرسة باسم المدرسة السيوفية بسبب وجود سوق السيوفيين على بابها »[1].

أما الحنابلة فيبدو أنهم كانوا فئة قليلة في أوائل العصر الأيوبي، يذكر المقريزي أنه «لم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل ثم اشتهر مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل في آخرها»[2]. لذلك لم نجد لهم أية مدارس في تلك الفترة سواء كانت خاصة بمذهبهم فقط أم مشتركة مع بعض المذاهب الأخرى اللهم إلا بعد ظهور المدارس الرباعية. وكانت أول محاولة لبناء مدرسة مستقلة لفقهاء الحنابلة ما قام بها عز الدين عبد الهادي بن شرف الإسلام الحنبلي، وكان فقيها واعظا ولكنه توفي قبل إتمامها في سنة ٥٨٦هـ - ١١٩٠م. وكان عز الدين ممن حضر إلى مصر صحبة أسد الدين شيركوه[3].

أما صلاح الدين فكان شافعي المذهب على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري[4] وشرط أوقافه التي وقفها على المدارس لأصحاب هذا المذهب وكان استجواذ صلاح الدين على مصر مشجعا لكثير من العلماء والفقهاء السنية للحضور إليها والإقامة بها داعين الناس للعودة إلى المذهب السني وتفقيههم بأمور مذهبهم. وكان منهم العالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني الذي لعب دورا هاما في إقامة الخطبة للعباسيين. كما عرف عنه تعصبه للمذهب الشافعي. وكان صلاح الدين يعظمه ويحترمه وعمر له مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعي سميت أحيانا بالناصرية بالقرافة تفرقة لها عن المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو، وأحيانا أخرى

---

(١) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ - أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٠٦ أحمد شلبي: تاريخ التربية ص ٢٠٨ - ربيع: النظم المالية ص ٧٦.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 - part I p. 356.

(٢) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٤٢.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٨٦

(٤) ولد أبي الحسن الأشعري سنة ٢٦٦هـ أو ٢٦٠ «٨٧٩ - ٨٧٣م» وحقيقة مذهب الأشعري أنه سلك طريقا وسطا بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الإثبات الذي هو مذهب التجسيم. انظر المقريزي الخطط جـ ٢ ص ٣٥٧، ٣٥٨ - الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٩ - ١٧٠.

بالمدرسة الصلاحية، ثم درج الناس على تسميتها بالشافعى[1]. وبلغ من ضخامة هذه المدرسة وفخامتها أن قال عنها السيوطى بأنه ينبغى أن يقال لها تاج المدارس، وأنها أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعى ولأن بانيها أعظم الملوك ليس فى ملوك الإسلام قبله ولا بعده[2] بناها السلطان صلاح الدين بن أيوب رحمه الله تعالى سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة «١١٧٦م».

أما الرحالة الأندلسى ابن جبير الذى زار مصر فى هذه الفترة وزار هذه المدرسة قبل أن يكتمل بناؤها فقد بهرته ضخامة البناء واتساعه، وما أنشئ فيها من المرافق كالحمامات، وعجب من النفقات الكثيرة التى أنفقت عليها، وذكر أن السلطان صلاح الدين كان يقول للشيخ الخبوشانى المشرف على عمارتها «زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله»[3] كما أنشئ أيضا بهذه المدرسة المساكن الخاصة بالمدرسين والطلبة[4]. أما الشيخ نجم الدين الذى تولى النظر عليها وتدريسها فقد خصص له راتبا أربعين دينارا عن قيامه بوظيفة التدريس، وعشرة دنانير عن قيامه بوظيفة النظر فى أوقاف المدرسة، هذا بالإضافة إلى راتب عينى يصرف له كل يوم عبارة عن ستين رطلا من الخبز وراويتين من ماء النيل، كما عين بها اثنين من المعيدين لمساعدة المدرس فى وظيفة التدريس، ورتب بها عدة من الطلبة[5].

كذلك أنشأ صلاح الدين مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسينى سميت بالمشهد[6] ويبدو أنها لم ترق إلى مكانة باقى المدارس التى أنشأها صلاح الدين.

ومن الملاحظ أن جميع هذه المدارس التى شيدها صلاح الدين بمصر والقاهرة كانت مجاورة لأماكن العبادة والتبرك سواء لجامع عمرو أم لضريح الشافعى أو المشهد الحسينى. وهذا يعطى

---

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٧٤، ٣٧٥، جـ ٦ ص ٢٠٦. إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب ص ٥٢ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٦. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٩.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٦ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ ٨ ص ٣٣٩. حسنين ربيع النظم المالية ص ٧٧.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص ١٧ - انظر أحمد شلبى: تاريخ التربية ص ٣٠٦.

Lane poole. The story of cairo. P. 184.

انظر الترجمة العربية ص ١٦٣.

(٤) ابن الزيات: الكواكب السيارة ص ٢١٤، ٢١٥.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٠٠.

(٦) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٠٦ - إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب ص ٥٢.

Lane poole. The story of cairo. P. 185.

انظر الترجمة العربية ص ١٦٤.

فكرة واضحة عن مدى بعد نظره وربطه المدارس السنية الجديدة بأماكن العبادات التى لها كل احترام فى نفوس المصريين. فضلا عن اكتساب الشهرة لهذه المدارس نتيجة ارتباطها بأسماء هذه الأماكن.

على أن اهتمام صلاح الدين بإنشاء المدارس لم يكن مقصورا على مصر والقاهرة فقط وإنما امتد هذا الاهتمام أيضا إلى مدينة الإسكندرية. واستغل زيارته لها فى السابع عشر من شوال سنة ٥٧٧هـ «٢٣ فبراير ١١٨١م» وأنشأ بها مارستانا ودارا للمغاربة ومدرسة على ضريح المعظم توران شاه[١]. ووفر للدارسين فيها كل ما يحتاجونه من مساكن يأوون إليها. ووفر لهم الخبز الذى يوزع عليهم كل يوم. ورتب لهم المدرسين فى مختلف العلوم وهيأ لهم الرعاية الصحية يقول ابن جبير «واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم. ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم»[٢].

ولم يكن اهتمام صلاح الدين مقصورا على بناء المدارس وتوفير الأوقاف للصرف من ريعها على المدرسين والطلبة وتوفير المساكن للغرباء، بل كان له اهتمامه الشخصى بالعلم وخاصة بالحديث. وقد انتهز فرصة وجوده بالإسكندرية وسمع الموطأ على الفقيه أبى الطاهر بن عوف[٣] هو وأولاده ومن حضر معه، كما سمع أيضا من الحافظ السلفى. يقول السيوطى «ورحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفى، ولم يعهد ذلك لملك بعد هرون الرشيد»[٤].

وقد سبق أن أشرنا إلى أن كلا من ابن عوف والسلفى كانت له مدرسة بالإسكندرية؛ المدرسة العوفية وكانت لأصحاب المذهب المالكى. والمدرسة السلفية وهى أول مدرسة للشافعية كما سبقتهم بقليل مدرسة أبى بكر الطرطوشى.

ولكن أثر صلاح الدين يبدو فى أنه أدخل نظام المدرسة بمعناها المتطور المعروف الذى أسسه نظام الملك، ومن بعده الزنكيون فى العراق والشام، بمعنى أن تصبح المدرسة مؤسسة رسمية لها نظامها العلمى والمالى، كما أن لها مواردها الثابتة التى تمكنها من الاستمرار فى أداء رسالتها.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٦.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص ١٥.

(٣) أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٢ إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب ص ٢٦ - أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٢٤ - المقريزى: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٧٦.

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٣ - انظر: ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٩٦، ٣٠٨ - ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ١٩٥.

وهذا العمل الذى قام بـه صـلاح الديـن لم يلبـث أن أصبـح قـدوة ومثـلا طيبـا لأمـراء دولتـه وفضلائها الذين ساروا على طريقه وأنشئوا العدد الكثير مـن المـدارس التـى انتشـرت فـى معظـم البلاد المصرية.

دور القاضى الفاضل :

وفى هذه النهضة التعليمية على أيام صلاح الدين ينبغى ألا نغفل الدور العظيم الذى قـام بـه القاضى الفاضل[1] الذى قال عنه صلاح الدين «فى ملأ من الناس لا تظنوا ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل»[2] وكان اهتمـام الفـاضل بـالأدب والعلـم بالغـا. يذكـر أنـه اشـترى مـن كتـب الفاطميين ما يقرب من مائة ألف مجلدة وبفضل تأثيره أخذ العلماء والطلاب يفـدون إلى مـدارس مصر من أقصى البلاد، ومن هؤلاء ابن فرو الذى استهوته حركة إحياء العلوم والثقافـة فجـاء إلى مصر من أقصى بلاد الأندلس، ولما جلس هذا الفقيه فى حلقة الدرس التـف حولـه جمـهور مـن المستمعين فقربه إليه القاضى الفاضل وأنزله فى داره[3]. كذلك كفل الفـاضل ابـن الخـلال الـذى تتلمذ على يديه بديوان الإنشاء الفاطمى بعد أن طعن فى السن وعجز عن الحركـة. ويقـال: «إن القاضى الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليـم فكـان يجـرى عليـه كـل مـا يحتـاج إلى أن مات».[4] ولعل هذا الاهتمام من الفاضل بعلمـاء المسلمين أمـر طبيعـى، وإنمـا الـذى يـدل علـى تقديره وحبه للعلماء دون تفرقه هو اشتماله للعالم اليهودى الطبيب موسى بن ميمـون الأندلسـى الذى نزل الفسطاط وقرر له الفاضل راتبا، وكان ابن ميمون قد أسلم ثم ارتـد وأراد أحـد مسلمى الأندلس بمصر إيذاءه فى ذلك فمنعه القاضى الفاضل وقال له رجل يكره لا يصح إسلامه شـرعا[5]. وكانت لابن ميمون هذا تصنيفات جيدة فى الرياضة والطب وألـف كتابـا فـى شـريعة اليـهود، ولكنه اضطر إلى إخفائها بعد أن أنكرها عليه مقدمو اليهود ووصفوه بالكفر.

أما عن اهتمام القاضى الفاضل بالكتب فقد اقتنـى منـها الأعـداد الكثـيرة فـى كـل الفنـون. فبالإضافة إلى ما اشتراه مـن كتـب الفـاطميين كـان عنـده عـدد مـن النسـاخ والمجلديـن لنسـخ

---

(١) عبد الرحيم بن على بن حسن أبو على البيسانى. ولد ببيسان فى سنة ٥٢٩هـ واشتغل بعلم الأدب فبرع فيه وصار أوحد زمانه. وتولى ديوان الإنشاء فى أواخر الدولة الفاطمية وخدم أسد الدين شيركوه وصلاح الديـن الـذى اتخـذه وزيرا له بحيث كان لا يصدر أمرا إلا بمشورته ثم خدم أولاده من بعده. توفى القاضى الفاضل فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ -- انظر المقريزى: الخطـط جـ ٢ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ - أبـو شـامة: الروضـتين جـ ٢ ص ٢٤١ - ابـن العمـاد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٥ - ٣٢٧ -- السبكى. طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٤٧٢.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ٤ ص ٦٠٧.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٢٠ ، ٢٢٤.

(٥) ابن العبرى: مختصر الدول ص ٤١٧، ٤١٨.

ما يكلفهم به، ويحكى أن ابنه أراد قراءة كتاب الحماسة فأمر الفاضل بإحضار ما عنده منها لاختيار واحدة لقراءة ابنه فأحضروا إليه خمسة وثلاثين نسخة كلها بخطوط منسوبة، فقال ليس فيها ما تبتذله الصبيان واشترى له نسخة بدينار[1].

وتتويجا للدور الكبير الذى قام به القاضى الفاضل فى رعايته للعلماء أنه أنشأ مدرسة لتدريس فقه مذهبى مالك والشافعى بالدرب المعروف بدرب ملوخيا، يقول ابن خلكان «ورأيت بخطه» يقصد خط القاضى الفاضل «أنه استفتح التدريس بها يوم السبت مستهل المحرم سنة ثمانين وخمسمائة»[2] ١٤ أبريل ١١٨٤م. والجديد فى هذه المدرسة أنه لأول مرة بمصر يجتمع طلبة مذهبين فى مدرسة واحدة، كما أنه ربما تكون أول مدرسة تزود بمكتبة ضخمة إذ إنه زودها بمجموعة قيمة من الكتب فى سائر العلوم يقال إنها كانت مائة ألف مجلدة وجعل فى المدرسة قاعة للإقراء وتولى الإقراء فيها الإمام الشاطبى، ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامه الاسكندرانى[3].

دار الحديث:

كانت السياسة التعليمية فى تلك العصور تعتمد أساسا على اهتمام السلاطين والأمراء وتشجيعهم، فإذا كان السلطان من المهتمين بالعلوم والمشتغلين بها ازدهرت العلوم فى عهده وتحسنت أحوال العلماء نظير ما يلاقونه من رعاية واهتمام وتوفير الأرزاق التى تعينهم على طلب العلم وتعليمه.

وقد سار السلطان الملك الكامل الأيوبى على طريق من سبقه من ملوك بنى أيوب فقد كان محبا للعلم والعلماء. ويؤثر مجالستهم وله اهتمام وشغف بسماع الحديث النبوى «وحدث بالإجازة عن ابن برى، وأبى القاسم البوصيرى، وأبو عبد الله صدقه الحرانى وغيرهم، وخرج له أبو القسم بن الصفراوى أربعين حديثا»[4].

وبلغ من شغف الملك الكامل بالعلم أنه كان يبيت عنده بالقلعة مجموعة من العلماء ينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه[5]. وكانت عنده مسائل غريبة فى الفقه والنحو يمتحن بها العلماء فمن أجاب منهم على مسائله حظى عنده وقدمه.

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٦ - أنظر المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٣٧.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٥.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3 part I p. 356.

(٤) ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٩٣، ١٩٤. المقريزى: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٥٨.

(٥) إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب ص ٨٢. المقريزى: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٥٩ - الخطط جـ ٢ ص ٣٧٦. العينى: السيف المهند ص ٢٠٠.

وكان يشارك العلماء مباحثاتهم ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن وهو معهم كواحد منهم[1]. واشتملت مجالسه العلمية على معظم فروع الأدب والمعرفة، وكانت عنده ملكة حفظ الشعر وتذوقه، كذلك كان يقرض الشعر[2] ويبارى العلماء والشعراء بما يحفظ من شعر، فيذكر أنه فى أحد المجالس أنشده أحد الحاضرين قصيدة الشيخ ابن الفارض التائية فأعجب بها وسأل عن صاحبها فلما أخبروه أمره، أمر أن يرسل بألف دينار برسم الفقراء الواردين عليه وأمر الرسول بأنه إذا قبل الشيخ الهدية أن يسأله الحضور لدى السلطان ولكن الشيخ رفض الهدية، فلم يمنع ذلك الملك الكامل من محاولة زيارته بنفسه وقال «مثل هذا الشيخ يكون فى زمانى ولا أزوره»[3]. وهذا يدل على إلمام الكامل وحبه للشعر ورعايته واحتضانه للعلماء حتى الذين لم يعرفهم إلا من أعمالهم الأدبية والعلمية. كذلك عمر قاعة بقلعة الجبل يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين فى شهر رمضان سماها قاعة رمضان[4].

ومن القصص الطريفة التى تذكر عن الملك الكامل أنه بعد توقيع الصلح مع الإمبراطور فردريك الثانى سنة٦٢٦هـ(١٢٢٩م)تطورت العلاقة بينهما إلى صداقة[5] نظرا لتشابه ميولهما من الإلمام بالعلوم والاهتمام بها؛فكان فردريك عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٧٢ – ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ٩١.

انظر المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٦ – أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٢، ص ٢٣٧ - ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٧٢. سعيد عاشور. الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ص ٢١١.

(٢) انظر المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٧ - أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٥

(٣) محمد مصطفى: ابن الفارض ص ٥٥.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٧ سنة ٦٣٥ هـ

(٥) الحقيقة أن الصداقة بين الملك والإمبراطور فردريك الثانى بدأت قبل ذلك إذ أرسل إليه الملك الكامل فى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) يطلب مساعدته ضد أخيه المعظم صاحب دمشق وساعد على التقارب بينهما ما عرف عن فردريك بتسامحه الدينى وحبه للمسلمين وحضارتهم بسبب نشأته بجزيرة صقلية بالإضافة إلى إتقانه للغة العربية حتى أنه كان يتذوق الشعر العربى بالإضافة إلى إعجابه بنظام الخلافة. وقد حضر إلى الشام بناء على دعوة الكامل ووعده بإعطائه بيت المقدس ولذلك لم تكن حملته حملة حربية بالمعنى المفهوم كما أن العلاقات بينهما لم تتوقف برحيل فردريك إلى الغرب وإنما تمسك كل منهما بصداقة الآخر

انظر: ابن واصل مفرج الكروب جـ٤ ص٢٠٦، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٥١ المقريزى. السلوك جـ١ ق١ ص٢٢٢، ٢٣٠ – أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٣. سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ص١٩٦، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١١، ٢١٢

Lane poole. The story of Cairo. p. 196.

وأرسل إلى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى المعروف بتعاسيف وغيره فكتب جوابها[1].

وهذه القصة إنما تدلنا على مدى اهتمام الملك الكامل وذيوع صيته كعالم من العلماء وراع للعلوم، فإذا كان الأوربيون قد عرفوا عنه ذلك ووطدوا أواصر الصداقة بينهم وبينه عن طريق المسائل العلمية، فمما لا شك فيه أن تصبح مصر فى عهده مركزا لتجمع الفقهاء والعلماء وأصحاب الفضل الذين أغدق عليهم وشملهم بعطفه ورعايته.

ونتيجة لهذه السياسة قصده العلماء وأرباب الفضائل فكان يكرمهم ويطلق «لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارة فممن قصده التاج ابن الأرموى وأفضل الدين الخونجى[2] والقاضى شمس الدين الأرموى قاضى العسكر وهؤلاء أئمة وقتهم فى المنقول والمعقول[3] ويذكر أنه حدث أثناء زيارته مدينة دمشق أن التقى بالشيخ زين الدين الزواوى وكان أحد أئمة عصره فى النحو واللغة فرغبه فى الانتقال إلى مصر، فسافر إليها وتصدر بجامع عمرو[4]. وكان الملك يعين جزءا من زكوات الأموات ويجعلها معاليم للفقهاء والصلحاء[5].

ولما كان الملك الكامل من المشتغلين بالحديث، وحدث بالإجازة عن العلماء فقد أنشأ بمصر أول مدرسة متخصصة لتدريس علم الحديث. وقد تم إنشاء هذه المدرسة فى سنة إحدى وعشرين وستمائة[6] (١٢٢٤م) بخط بين القصرين وسميت بدار الحديث الكاملية. ولم تعرف دور الحديث فى الإسلام إلا فى عهد نور الدين محمود. ويذكر المقريزى أن الملك الكامل وقف هذه الدار على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية[7]. وأول من تولى

---

(١) انظر: ابن واصل. مفرج الكروب. جـ ٤ ص ٢٤٢ – المقريزى السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٣٢. سعيد عاشور. الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) محمد بن ناماور بن عبد الملك ولد فى جمادى الأولى سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م). واشتغل مدة فى بلاد العجم ثم قدم مصر وتولى القضاء بها ودرس بالمدرسة الصالحية وله كثير من المؤلفات فى المنطق والطب. توفى فى رمضان سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م).

انظر ابن أيبك الصفدى. الوافى بالوفيات جـ٥ص١٦٠ – ١٦٢ – ابن العماد شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٦. ٢٣٧.

(٣) المقريزى. السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٥٩.

(٤) انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤٣ – أحمد بدوى. الحياة العقلية ص ٢٠٤، ٢٠٥ زين الدين الزواوى: أبو الحسن يحيى بن عبد المعطى الزواوى. ولد سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) واشتغل بدمشق فترة طويلة إلى أن رغبة الملك الكامل فى الانتقال إلى مصر. توفى فى ذى القعدة سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م).

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٧.

(٦) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٧ سنة ٦٢١هـ – ابن أيبك الدوادارى. كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦٧ – ابن كثير. البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠٤ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٨ بينما يذكر المقريزى أن هذه المدرسة أنشئت فى سنة ٦٢٢هـ. أنظر الخطط جـ ٢ ص ٣٧٤.

(٧) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٤.

تدريس هذه الدار الحافظ أبو الخطاب بن دحيه[1] وكان من المقربين للملك الكامل، يذكر أن الكامل بنى هذه الدار خصيصا له ليقوم بتدريس الحديث بها.

كذلك تم ترتيب الأوقاف اللازمة للصرف من ريعها على المدرسة وأساتذتها وطلبتها كما أنشأ «فيها منازل يسكن بها الطلبة والمدرسون وجعل لها خزانة كتب يليها أحد الرجال المثقفين»[2].

المدرسة الصالحية[3]:

كان بناء هذه المدرسة بمثابة إتمام وإكمال لتطور نظام المدرسة واكتمال شخصيتها إذ بدأت هذه الحركة بإنشاء مدارس مفردة تقوم أساسا بتدريس مذهب واحد من المذاهب السنية الأربعة ثم تطورت إلى أن جمعت بين مذهبين. فنجد مدرسة القاضى الفاضل تجمع بين درسين للشافعية والمالكية. واستمر سلاطين بنى أيوب وأمراؤهم وأغنياؤهم بل وأميراتهم أيضا يحرصون على تشييد المدارس ورصد الأوقاف عليها لضمان استمرارها فى أداء رسالتها العلمية. حتى أنشأ الملك الكامل مدرسة مستقلة لتدريس الحديث النبوى. وتبع ذلك إنشاء الملك الصالح المدرسة الصالحية بين القصرين وكان موضعها جزءًا من القصر الكبير الشرقى فابتدأ بهدم موضعها فى ذى الحجة سنة ٦٣٩[4] «يونية ١٢٤١» ويذكر المقريزى أن الملك الصالح استخدم عددا كبيرا من أسرى الفرنج فى تشييد عمائره ومنها المدرسة الصالحية[5]. وبعد إتمام المدرسة وقفها

---

(١) ابن دحية . أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى ولد فى ذى القعدة سنة ٥٤٤هـ (١١٥٠م) واشتغل بالحديث ورحل إلى بلاد المشرق ثم استقر بمصر، وأدب الملك الكامل، وكان من أعيان العلماء متقنا لعلم الحديث واللغة. توفى سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م).

انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ٣ ص ١٢١، ١٢٣–الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ٤ ط ١٨ ص ١٤٢٠، ١٤٢٢ – ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٩٤. المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٤ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠٤، ص ١٤٤. السيوطى: حسن المحاضرة جـ١ ص١٠٢، جـ٢ ص١٨٨، ١٨٩–ابن العماد: شذرات الذهب جـ٥ ص١٦٠ – ١٦٢.

(٢) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٥٢ – أنظر أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ٥٨.

(٣) ويطلق عليها فى كثير من المصادر اسم المدارس الصالحية وذلك اعتمادا على ما جاء باللوحة التأسيسية للمدرسة ما نصه «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدارس المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدين والدنيا أبى الفتح خليل أمير المؤمنين أعز الله نصره فى سنة أحد وأربعين وستماية» أنظر: أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ٦٧، ٦٨ بالإضافة إلى لوحة ٢٥ من نفس المرجع.

(٤) انظر النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٧ سنة ٦٣٩ – ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٤٧ – المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٠٨ ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٧.

(٥) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٠٥.

الملك الصالح على طوائف الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة. وبذلك تكون المدرسة الصالحية أول مدرسة بمصر «تشمل دروسا أربعة فى مكان واحد»[1].

والواقع أن الملك الصالح لم يكن مبدعا لهذا النوع من المدارس المشتركة لتدريس المذاهب السنية الأربعة، إذ سبق ذلك قيام المدرسة المستنصرية ببغداد لتدريس المذاهب الأربعة، ولكن الاختلاف بينهما أن المدرسة المستنصرية لم يكن بها سوى إيوانين اثنين أما المدرسة الصالحية فكانت تشتمل على أربعة أواوين كل إيوان منها خاص لطلبة مذهب من المذاهب السنية الأربعة[2].

وأول من تولى إلقاء الدرس بها من مدرسى الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد ابن العماد إبراهيم بن عبد الواحد على بن سرور المقدسى الحنبلى الصالحى[3]. وهذه أول مرة يكون للحنابلة فيها مدرسة إذ لم يسبق أن أقيمت لهم مدرسة قبل ذلك سواء كانت خاصة بهم أم مشتركة مع غيرهم من المذاهب السنية الأخرى. وربما كان السبب فى ذلك قلة عدد الحنابلة بمصر، ولكن الراجح هو وجود بعض العداء بين الحنابلة والأشاعرة مما سبب الكثير من الفتن.

ويذكر النويرى أن الملك الصالح بعد فراغه من عمارة هذه المدرسة ندم وتمنى لو أنه بنى مكانها جامعا يرتب فيه الدروس الأربعة التى رتبها فى هذه المدرسة[4].

وإذا كان الملك الكامل مولعا بالعلم وله مجالس خاصة يعقدها ويناقش فيها العلماء والأدباء وأنه كان مغرما بعلم الحديث وله إجازات فيه فإن ذلك من العوامل الأساسية التى دعته لبناء دار الحديث. أما الملك الصالح فبالرغم من ميله إلى مطالعة الكتب إلا أنه لم يكن عند حماسة الكامل ولا ثقافته ولم يكن بينه وبين العلماء كثير من الود. إلا أنه كان مغرما بالعمائر ويشرف على البناء بنفسه ويهندسه بعقله بما لا يصل إليه المهندسون[5]. وبنى الكثير من القلاع والقصور والمستنزهات.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٣٩. انظر: ناجى معروف: نشأة المدارس ص ١٠ .

Encyclopaedia of Islam. Vol. 3 part 1 - p. 356.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٣.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٧ سنة ٦٣٩هـ

(٥) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٧١.

وكانت هذه المدرسة مبنية على مساحة واسعة من الأرض لا تقل عن ستة آلاف متر مربع وتألفت من قسمين[1]: أحدهما على يمين الداخل من الباب العمومى والثانى على يساره وهما ما عبر عنهما باسم مدرستين وبكل مدرسة منها إيوانان ويتوسط البنائين صحن كبير وخصص الإيوانان اللذان على اليمين للحنابلة والحنفية أما الإيوانان اللذان على اليسار فقد خصص أحدهما للمالكية والآخر للشافعية.

النشاط العلمى وهجرة العلماء إلى مصر:

كان لاستيلاء الأيوبيين على الحكم فى مصر ومحاولتهم القضاء على المذهب الشيعى أثر كبير على الحياة العلمية السائدة فى مصر فى ذلك الوقت ذلك أن التعليم فى العصر الفاطمى كان خاضعا لإشراف الدولة وموجها نحو نشر المذهب الشيعى الذى يخالف المذاهب السنية فى نواح عدة، فكانت مهمة الدولة الجديدة بجانب القضاء على المذهب الشيعى العودة بأهل مصر إلى المذهب السنى وتعليم الناس أصول دينهم وتنقية العقيدة مما علق بها من أفكار شيعية تتعارض وتعاليم السنة. لذلك لجأ الأيوبيون إلى الإكثار من إنشاء المدارس لتكون مراكز للتعليم ونشر المذهب السنى «ومهما يكن من أمر إدخال المدارس فى مصر فإنه كان بمثابة انقلاب فى الثقافة والبناء على السواء فقد زالت وصمة «البدعة» عن جبين مصر كما أخذت الثقافات المختلفة تتدفق إلى القاهرة مرة أخرى»[2] وكان لابد من القضاء على كتب الفقه الشيعى وإفساح المجال أمام علماء السنة للاجتهاد فى الرد على ادعاءات الشيعة وتفنيدها وإثبات خطئها وخروجها على العقيدة الإسلامية وإقناع عامة الناس بذلك.

وقد وفر الأيوبيون سبل الرعاية والتشجيع للعلماء ووفروا لهم الرواتب والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره. ونتيجة لذلك أصبحت مصر مقصدا لمعظم العلماء يأتون إليها من المشرق والمغرب كل منهم يرى فى مصر البيئة الملائمة لنشر علمه.

وهناك عاملان شجعا هؤلاء العلماء على الحضور إلى مصر، فمن الناحية الدينية كانوا يرون أن واجبهم الدينى يحتم عليهم إعادة نشر المذهب السنى بمصر وتعريف الناس بأصول دينهم. ومن ناحية أخرى كانوا يأنسون بما يلاقونه من حسن الجزاء والرعاية من السلاطين والأمراء.

وقد شهدت مصر معركة فقهية أخرى بين طائفتين من طوائف أهل السنة. الطائفة الأولى الأشاعرة، والطائفة الثانية أصحاب المذهب الحنبلى وكان أن «دفع كل فريق من هؤلاء إلى أن

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤١ حاشية رقم/١.

(٢) Lane poole. The story of Cairo. p. 191.
انظر الترجمة العربية ص ١٦٧

يناضل عن عقيدته وما يدين به»[1] حتى حدثت فتنة بسبب ذلك عندما عمد نجم الدين الخبوشانى إلى قبر«ابن الكيزانى الطاهرى وهو من غلاة أهل السنة فنبشه من عند الشافعى وقال لا يكون صديق وزنديق فى موضع واحد فثارت عليه الحنابلة»[2]. كذلك تصدى بعض العلماء للرد على النصارى والدفاع عن عقيدة الإسلام كالوزير القفطى وعبد اللطيف البغدادى[3].

– أما عن **نجم الدين الخبوشانى** فهو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن بن عبد الله الخبوشانى الملقب نجم الدين الفقيه الشافعى[4]. كان عالما زاهدا كثير الورع قام بإظهار عقيدة الأشعرى وكلفه صلاح الدين بالإشراف على بناء مدرسته المجاورة للإمام الشافعى وتولى تدريسها والنظر عليها بعد إتمام عمارتها. وكان صلاح الدين يعتقده ويسأله الدعاء إذا خرج للغزو.

أما عن علاقة نجم الدين بالطلبة فكان يعاملهم معاملة الأب لأبنائه، يحاول تقصى أخبارهم والسؤال عن مشاكلهم ومحاولة حلها حتى يتفرغوا لطلب العلم وقد «خرج فى بعض الليالى يطوف على بيوت الطلبة بالمدرسة فسمعهم يقرءون القرآن حتى أتى إلى خلوة فنظر من خلال الباب فرأى صاحب الخلوة وقد وضع الكتاب من يده»[5] وأنشد الطالب بعض أبيات الشعر. فلما أصبح النهار سأل الخبوشانى الطالب عما به وأخبره بما سمعه منه فى الليلة السابقة. وفى ذلك دلالة على أنه لم يكن يهتم فقط بإلقاء الدروس بل كان يهتم بحالة الطلبة النفسية وحل مشاكلهم.

– وأما **الشاطبى** فهو أبو محمد القاسم بن فيره بن أبى القاسم خلف بن أحمد الرعينى الشاطبى نسبة إلى بلدة شاطبه من بلاد الأندلس، ولد بها فى آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة[6] (١١٤٣م) وبدأ دراسته بحفظ القرآن الكريم على العادة فى هذا الزمان، وقرأ بالروايات على ابن هذيل الأندلسى وغيره[7]، ثم رحل إلى بلنسيه حيث عرض ما درسه من

---

(١) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ١٨٨.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٨٨.

(٣) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ١٨٨.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٧٤، ٣٧٥ أنظر ابن أسعد: مرآة الجنان جـ ٣ ص ٤٣٣، ٤٣٤ - السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٨٩ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٨٨ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٤٧. ابن أيبك الصفدى الوافى بالوفيات جـ ٥ ص ١٠٠.

(٥) ابن الزيات: الكواكب السيارة ص ٢١٤، ٢١٥.

(٦) ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣٥ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠.

(٧) ابن العماد. شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٠٢.

القراءات على بعض أساتذتها وأعاد درس كتاب التيسير للدانى ودرس الحديث والنحو والأدب والفقه[1]. وبرع فى هذه العلوم جميعا وكان عالما بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرا وبحديث رسول الله ﷺ مبرزا فيه وكان إذا قرىء عليه صحيح البخارى ومسلم والموطأ يصحح النسخ من حفظه[2] وانتهت إليه الرئاسة فى وقته فى قراءة كتاب الله العزيز ومعرفة وجوه قراءته وتقريره وعلوم الحديث والنحو واللغة وغير ذلك مما تفرد واعترف له به أهل وقته ومن بعدهم[3].

أما شهرة الشاطبى فترجع إلى القصيدة التى ألفها وسماها حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا أبدع فيها كل الإبداع وأصبحت «عمدة قراء هذا الزمان فى نقلهم، فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها وهى مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة وما أظنه سبق إلى أسلوبها وقد روى عنه أنه كان يقول لا يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها لأنى نظمتها لله تعالى مخلصا فى ذلك.ونظم قصيدة دالية فى خمسمائة بيت من حفظها أحاط علما بكتاب التمهيد لابن عبد البر»[4] ونالت قصيدته حرز الأمانى حظا كبيرا من الشهرة وإقبال الدارسين عليها وسميت هذه القصيدة بعد ذلك بالشاطبية وبلغ من مكانة هذه القصيدة عند القراء أن كان يوكل مدرس خاص لتدريسها فى المدارس.

دخل الشاطبى مصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (١١٧٦م) ونزل الإسكندرية فسمع الحديث فيها على الحافظ السلفى[5] ثم دخل القاهرة بعد ذلك تسبقه إليها شهرته وعلمه وعندما بنى القاضى الفاضل مدرسته فى سنة ثمانين وخمسمائة (١١٨٤م) خصص فيها قاعة للإقراء وتولى الشاطبى إقراء الطلبة فيها كما كان يدرس فيها أيضا النحو واللغة. وكان الشاطبى عالما بمذهبى مالك والشافعى وكان هذا أحد شروط الفاضل لمن يتولى التدريس فى مدرسته حيث إنه وقفها على الطلبة من المذهبين[6]. وكانت للشاطبى آدابه وسلوكه عند إلقاء الدرس فكان يتطهر قبل الجلوس لإلقاء الدرس مهتما بهيئته وملبسه مع الخشوع والاستكانة. واستمر مواظبا

---

(١) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٩٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣٤ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٠٢.

(٣) ابن الزيات: الكواكب السيارة ص ٣١٠.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٣٤ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٦ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٠.

(٥) السبكى: طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٩٧– أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٩٩.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٥ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٠.

على دروسه إلى أن توفاه الله فى الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة (٢١ مايو سنة ١١٩٤م) ودفن فى تربة القاضى الفاضل[١].

– ومن هؤلاء العلماء أيضا **الشهاب الطوسى** وهو أبو الفتوح محمد بن محمود بن محمد بن شهاب الدين وهو من أكبر الأئمة الشافعية مكث ببغداد مدة ويذكر أنه فى أثناء إقامته ببغداد «كان يركب بسنجق والسيوف مسللة والغاشية على رأسه والطوق فى عنق بغلته فمنع من ذلك فذهب إلى مصر»[٢] وأخذ يعظ الناس بالجامع العتيق ثم اتصل بتقى الدين عمر بن شاهنشاه الذى عمر له المدرسة المعروفة بمنازل العز[٣]. وكان عالما فى عدد من العلوم معظما للعلم وأهله وكان شديد الاعتداد بنفسه له طريقته الخاصة عند مسيره حيث كان يركب بالغاشية وينادى بين يديه هذا ملك العلماء «وكان معظما عند الخاص والعام طويلا مهيبا مقداما يرتاع منه كل أحد ويرتاع هو من الخبوشانى وعليه مدار الفتوى فى مذهب الشافعى»[٤]. واستمر الشهاب الطوسى قائما بالتدريس فى منازل العز «حتى فاز فى جنة النعيم بفوزه وخلت منازل العز من منازل عزه»[٥] وذلك فى ذى القعدة سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠م) وخرج أهل مصر لتشييعه وكان يوما مشهودا خرج فيه الملك العادل وكبراء دولته لتشييعه.

– وأخيرا نشير إلى **السيف الآمدى** وهو أبو الحسن على بن أبى على السيف الآمدى نسبة إلى بلدة آمد ولد بها سنة ٥٥١هـ (١١٢١م) ثم رحل إلى بغداد وأجاد علم الجدل والمناظرة «وأخذ علم الأوائل عن جماعة من نصارى الكرخ ويهودها وتظاهر بذلك فجفاه الفقهاء وتحاموه ووقعوا فى عقيدته»[٦] فرحل إلى الشام مستمرا فى دراساته الفلسفية حتى تفرد بها«ولما كان أقرب العلوم الإسلامية إلى المنطق والفلسفة هما علم الأصول وعلم الكلام، نبغ السيف الآمدى فى

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣٥ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٠٣.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٧ – ٣٢٨ وغاشية الرجل من ينتابه من زواره وأصدقائه. انظر ابن منظور، لسان العرب جـ ١٩ مادة غشا.

(٣) هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين. بنتها أم الخليفة العزيز بالله بن المعز وعرفت بمنازل العز. اشتراها الملك المظفر تقى الدين بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب. ولما أراد أن يخرج من مصر إلى الشام وقف منازل العز على فقهاء الشافعية وقف عليها الحمام وما حولها.

انظر: المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٣ – أبو شامة: الروضتين جـ ١ ص ١٩١. ابن قاضى شهبه: الكواكب الدرية ص ١٩٤.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٢٤٠. أنظر ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤.

(٦) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٢٤١.

هاتين المادتين»[1] ثم انتقل إلى مصر سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥م) وظهر بها فضله وعلمه وتولى الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الشافعي رضى الله عنه وتصدر بالجامع الظافرى[2]. واشتغل عليه الطلبة واشتهر بعلمه وفضله وساعده على ذلك ما يتمتع به من ذكاء حتى قيل إنه أذكى أهل زمانه، ثم نزل مدرسة منازل العز التى كان يتولى تدريسها الشهاب الطوسى «وناظر بمصر وحاضر وأظهر بها تصانيفه فى علوم الأوائل ونقلت عنه وقرأها من رغب فى شىء من ذلك وقرىء عليه تصنيفه فى أصول الدين وأصول الفقه[3].

وقد أثارت شهرته حسد بعض الفقهاء فتحاملوا عليه ورموه بفساد العقيدة ومذهب الفلاسفة وكتبوا محضرا بذلك ووقعوا عليه بما يستباح به الدم[4] فلما رأى اشتداد خصومه فى عداوتهم له رأى أن يترك مصر حفاظا على حياته وانتقل إلى الشام.

ومما يدل على أن حملة خصومه عليه لم تكن إلا من غيرتهم منه وحسدهم له، وأنهم رموه بفساد العقيدة ظلما ما قاله الشيخ عز الدين بن عبد السلام[5] لو ورد على الإسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غير الآمدى لاجتماع أدلية ذلك فيه، وقوله ما تعلمنا قواعد البحث إلا منه. وقد أعجب بطريقته فى إلقاء الدرس حتى قال: ما سمعت أحدا يلقى الدرس أحسن منه[6].

---

(١) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ١٩٤ – انظر ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥٥ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤١. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٩.

(٣) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٢٤١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥٥ – ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤١. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٩ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٥.

(٥) عز الدين بن عبد السلام أبى القاسم بن محمد بن مهذب السلمى ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة دخل مصر فى حدود سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) فى عهد الملك الصالح أيوب واشترك فى الجهاد فى معركة المنصورة، وحث المماليك على ملاقاة التتار وانتهت إليه الصدارة فى مذهب الشافعى وتولى القضاء واشتغل بالإفتاء والتدريس. توفى بمصر عاشر جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م).

انظر السبكى: طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٨٠ إلى ص ١٠٧. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٧٢، ١٧٣. ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠١، ٣٠٢.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٥.

ولم يقف تأثير العلماء على الحياة العامة فى ذلك الوقت عند حد الناحية العلمية فحسب بل تعدى ذلك إلى الناحية السياسية والحربية فنجد الإمام ابن شاس شيخ المالكية ومدرس المدرسة القمحية يترك التدريس ويتوجه للجهاد فى سبيل الله عندما استولى الصليبيون على دمياط فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) وهى ما تسمى بالحملة الصليبية الخامسة واستمر الشيخ ابن شاس فى جهاده إلى أن توفى سنة ست عشرة وستمائة[١] (١٢١٩م).

وفى نفس هذه الحرب نجد الملك الكامل يرسل الشيخ صدر الدين بن حموميه برسالة إلى والده الملك العادل يخبره فيها بأخذ الفرنج برج السلسلة فى آخر جمادى الأولى سنة ٦١٥هـ[٢] (١٢١٨م) كما أرسله فى سفارة أخرى للخليفة العباسى يستنجد به على الفرنج فأدركته الوفاة وهو فى الموصل سنة سبع عشرة وستمائة (١٢٢٠م) وكان الشيخ صدر الدين يتولى تدريس الشافعى والمشهد الحسينى ومشيخة خانقاة سعيد السعداء[٣]. وكان المدرسون فى المدارس الأيوبية يختارون على أساس مستواهم العلمى وكان لكل مدرسة شروط خاصة يجب أن تتوفر فيمن يتولى التدريس فيها ويشرف على ذلك ناظر الوقف. وغالبا ما كان قضاة القضاة هم الذين يتدخلون فى الرقابة على تنفيذ شروط المدارس فنجد الشيخ عز الدين بن عبد السلام يعزل القاضى فخر الدين بن قاضى القضاة عماد الدين بن السكرى من تدريس مدرسة منازل العز لأنه وجد شرط الواقف بالمدرسة أن يكون المدرس بها عارفا بالأصولين وهو عار عن معرفتهما فأسقطه لذلك[٤].

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٧ سنة ٦١٦هـ — ابن أسعد: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٣٥.
«جلال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن مواد بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شاس الخزامى السعيدى».

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٢٢.

(٣) ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ٢٥٩ السيوطى: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٠: ٢٣١.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٦٣٩.